جهود حركة الاستشراق في تطوير الدرس اللغوي في العربية: واسطة حوار وموطن نزاع

د. فرحات الدريسي (*)

المقدمة :

ليس المقصد استيفاء جهود المستشرقين اللّغوية، ولا استتمام توثيقها، ولا الدّرس المقارن بينها، تصنيفًا وعلمًا ومنهج علم، من جهة، أوبينها وبين جهود سواهم اللّغويّة بالعربيةّ أوفي العربيّة، من جهة ثانية، وإنّما المرمى الاقتصار على فكرة واحدة وعلى حدود توظيفها في الوقت نفسه. وهي فكرة، نراها تفكيرًا وتوظيفا، فكرة أساسيّة وحاسمة في تطوير الدّرس اللّغوي بالعربيّة وفي العربيّة، معًا، وفي فهم الأفق المساعدة على ترقية الذهنيّة اللّغوية، وانفتاحها على أكثر من وعي، وانخراطها في أزيد من مسلك من مسالك إنتاج المعرفة اللّغويّة،

(*) أستاذ بكلية الآداب والفنون والإنسانيّات بمنّوبة.

وتوزعها على أكثر من وجه من وجوه الحقيقة، من جهات مختلفة ومتعدّدة، نظريّة علم ومنهج علم وشكل علم.

نعني حينئذ بترسيم فكرة التّطور في تناول الدّرس اللّغوي في العربيّة، من طريق المستشرقين عموما، ومن جهات النظر وإعادة النظر في العلاقات الواصلة والفاصلة، أو الجامعة والمانعة، بين العربيّة الفصحى وبين لهجاتها الدّارجة، وفي حدود الشّراكة بينها، مادة لغويّة ومستويات تعبير، وكيفيّات آداء، وطرائق تبليغ، ومماثلة ومجاورة وعناصر مجانسة ومغايرة بين أنظمتها الصّغرى والكبرى، في الوقت نفسه، صوتيّا وصرفيّا ومعجميّا ونحويّا ودلاليّا، تركيبا وبلاغة، إذا ما سلّمنا بأنّ حدود الشّراكة بينها مصدر إغناء وإنماء وإثراء بتنمية المعجم المستعمل في التّسمية مادّة، وبالتّوسّع في التعبير وكيفيّات الآداء بلاغة، وفي الشّرح والتّفسير، تأصيلاً وتأويلا واستحداثًا.

ونقصد بالتّوظيف ازدواجيّة استخدام المعرفة اللّغويّة، جزئيّا أوكليّا، معرفة وإيديولوجيا معرفة في الوقت ذاته، لحظة تخرق المعرفة عمومًا واللّغويّة منها خصوصًا، لعلاقتها العضويّة بخصوصيّة الذّات والهويّة، رسومها وحدودها، الّتي يفترض أن تكون واصلة بين الناس على اختلاف ثقافاتهم وحضاراتهم، وأن تكون هادفة إلى التّقريب بينهم ليتعارفوا، - ما دامت جزءا من التّحاور المتكافئ بينهم والطّبيعي والفطري عندهم - فتتحوّل إلى عنصر تغاير وتنافر وتدافع، معًا، بينهم ما أن يصير توظيف العلاقات بين العربيّة الفصحى وبين لهجاتها الرّديفة موطن إشكال، وموضع نزاع بينها وبينهم، وبين سواها وسواهم، فيستحيل الدّرس اللّغوي في العربيّة جزءًا من المشكلة الثّقافيّة، من جهة سياسة الثّقافة وثقافة

السّياسة، بدرجات متفاوتة، بين أكثر من تجربة، تتوسع من داخلها حدود الخصوصيّة والعرقيّة والقوميّة صوب الإطلاقية لتتقلّص حدود العموميّة والشّراكة وتتحدّد بالتّقييد والتّعيين. ولن يستقيم نظرنا في الفكرة المرصودة وفي ازدواجيّة توظيفها ما لم نسلم بأنّ الثّقافات والحضارات، عمومًا، واللّغة منها، خصوصًا أداة توسّط طبيعية في التّحاور وآدابه بين الناس ومسلك فطري إلى بناء أفق التّفاهم أوامتناعه بينهم.

الثّقافي مفروض نهضوي داخليّا وخارجيّا، ذاتيّا وموضوعيّا :

يشترك دارسو الحركة النهضويّة العربيّة الإسلاميّة المعاصرة، باعتبار المعاصرة امتدادًا زمنيّا يشمل القرون الثّلاثة الأخيرة، من العرب ومن غير العرب، في القول، وبدرجات متفاوتة، بأنّ المداخل إلى فهم تلك الحركة النهضويّة الإصلاحيّة ترد، على تفرعها وتداخلها، على صعيدي مضمون القول وفكره، وشكل القول وصوغه، إلى مسربين أصليّين يسلّم أحدهما إلى الآخر ولا يشفع للفصل بينهما سوى النّظر المنهجي. وإنّ أوّل ذينك المنفذين، أن تفهم تلك الحركة النّهضويّة الإصلاحيّة من الداخل، أي من داخل العروبة والإسلام. وأمّا ثانيهما، فأن تفهم تلك الحركة ذاتها وفي الوقت نفسه من الخارج، أي من خارج العروبة والإسلام، أي في علاقتها بالغرب أوبالآخر لحظة اصطدام الشّرق بالغرب.

لقد تضافرت العوامل الذّاتيّة، من جهة الدّاخل، والعوامل الموضوعيّة من جهة الخارج، باعتبار التّصادم لحظة المواجهة بين العالمين اللّذين كان يجهل كلاهما الكثير عن الآخر وما أحدثه من ارتجاج طال درجات الواقعي والحقيقي والخيالي والمثالي على إنشاء ضرب من المقارنة بين الدّاخلي والخارجي. وقد ولدت تلك الموازنة بدورها ضربًا

من هاجس الخوف على الذّات ورغبة في التّجاوز، وقد أحدث ذلك الشعور بالخوف أيضا ضربًا من تصدّع الكيان، طال حتى الثابت منه. وقد استتبع ذلك التّصدع شيء من الوعي المتنامي، في المعرفة، بخطر الآخر المداهم وبمصادر قوّته وفق ذهنيّة العصر وتاريخها. فتردّدت الذّات وعلى كافّة الأصعدة، وبدرجات متفاوتة، بين الانبهار والنّفور، وانحكمت بثنائية الرّهبة والرّغبة، فاتّسمت بالازدواجيّة وبالحيرة وبالاضطراب وبتعدّد المراجع واختلافها واختلاطها. ولم يكد يسلم شيء من شيء من آثار"صدمة الحداثة" تلك. وإذ يهمّنا، فيما نحن بصدده، الجانب الثّقافي، من جهة العموم، ويعنينا من الثقافي الدّرس اللّغوي، من جهة الخصوص، فإنّ حظ المسائل اللّغويّة من المباحث النّظريّة والتّطبيقيّة سواء منها المعياريّة أوالوصفيّة كان ذا شأن ولا يزال، فضلاً عن أنّ تلك المباحث قد تناولت مستويات لغويّة متعدّدة من أهمّها مباحث الفصحى واللّهجات المختلفة، وعالجت أبنيتها المعجميّة والنحويّة والصرفيّة والصوتيّة والدّلاليّة والبلاغيّة في دراسات عامة ومفردة.

ولم تكن مقصورة على بعض النهضويّين دون سواهم ولامنحصرة في منزع فكري واحد [1] إذ لئن كانت ترقية اللّغة العربيّة بإحياء معاجمها وبتهذيبها وتيسير استعمالها... مطلبا ملحّا من الدّاخل، لأسباب متعدّدة ومتنوّعة قد تتقيد صلتها باللّغة أوتتّسع، فإنّ الدّرس اللّغوي كان أيضا مطلبا ملحّا من الخارج لأسباب علميّة ومذهبيّة أو إيديولوجيّة. فلئن ظلّ الموقف اللّغوي من الدّاخل، في البداية، ومن جانب الأفراد والمؤسّسات، محكوما بنزعة لغويّة اتّسمت بالمعياريّة وبالمحافظة، ثم مالت بعض الميل أو كلّ الميل، في حين لاحق، إلى الوصفيّة والآنيّة، فإنّ

(1) انظر، مثلا، جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1980.

الموقف اللّغوي من الخارج كان صادرًا عن رغبة في المعرفة والاطّلاع ومدفوعا بحق المعرفة في تأسيس سلطة المعرفة وقدرتها على التّنصيص على حقّ القول وحقّ الإلغاء (2). وإن هي إلاّإلماعة إلى دوافع المهاد النّهضوي الفاعلة في الثّقافي اللّغوي فعلها في سائر فروع النّهضة وأبعادها، بدرجات متفاوتة، قد تضيق وقد تتّسع من مطلب نهضوي إلى سواه (3). لقد كان الموقف من التّراث جملة، من الدّاخل ومن الخارج، مدار النّظر والتّحقيق، ومصبّ النّزاع الجامع بين كافّة مشاريع الرّؤى التّحديثيّة. ولئن ترسم ذاك الموقف من الدّاخل في نزاع بين أنصار القديم وأنصار الجديد، وشمل ممّا شمل، وممّا يعنينا، في حدود بحثنا، قوانين الكتابة باللّغة العربيّة، وطرقها الذّاتية في تصريف فنون القول وتشكيله، فإنّه موقف قد انحكم إلى حدّ كبير، من جهة الخارج، بظاهرة العلاقات الثّقافية، وبالرّغبة في معرفة الآخر، أوبلذة الكشف والمعرفة، وإن عددناه موقفا يشفع له قانون الغلبة، وقد يبرّره قانون الحاجة والضّرورة.

إنّه لتلك الأسباب ولغيرها، كثيرا ما صار الموقف، كلما عن الحديث، من الدّاخل، عن اللّغة العربيّة، مصبّ خصام يخفي، بدوره، نزاعا أعمق في شأن الموقف من التّراث جملة، فأحرى أن يحتدّ الخلاف ويتعقّد الموقف إذا ما أثيرت المسألة من الخارج، وقد يشفع لتلك الحدّة ما يشفع، وقد يبرّرها ما يبرّرها في زمن نصّت فيه المباحث المستحدثة في شتّى

(2) انظر: تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة، الدار البيضاء،1980.

- FLEICH (Henri): L'Arabe classique, Esquise d'une structure linguistique, Beyrouth 1956.

(3) يعسر في نظرنا فهم الجانب الثّقافي عامة واللّغوي خاصّة بمعزل عن غيره من أبعاد النّهضة إذا ما أعرضنا عن التقاط فعاليّات الحركة النهضويّة مجتمعة باعتبارها عوامل عامّة تحكم من بعيد ومن قريب كلّ الفعل النّهضوي الّذي لا نراه إلاّ فعلا واحدا تتداخل أبعاده وتتماهى ولا تقبل التّفريع إلاّ على صعيد النّظر.

فروع العلوم الإنسانيّة على تثبيت تلازم العلاقة بين المعرفة والسّلطة أوبين الثّقافي والسّياسي [4].

إنّ الاستئناس بما تسعفنا به اليوم مناهج البحث المستحدثة، نظريا وتطبيقيا، من مقاربات جديدة في البحث العلمي يجعلنا نألف بموضوعية أكثر، جدوى الفصل في الدرس العلمي بين مطالب الذّات ومطالب موضوع الدّرس ومادّته، فإذا الظّاهرة، بحكم نسبيّة المعرفة، قابلة للفهم والتّقييد، قبل أن تكون مفهومة أو معقولة بتقدمة في المعرفة. ويكفي أن تدب عناصر الحيرة في سلطة المعلوم من الأحكام، وأن تندس بذور الشكّ في أركان المألوف أوالسّائد من الآراء، كي نتبيّن أنّ العلاقة بين نمط المعرفة ومضمونها وبين خصائص العصر الثّقافي والمنتج لتلك المعرفة ظاهرة تقبّل "العقلنة" وتحديد النّظر لأنّها منخرطة في نظام، ما، وأنّ الخروج من نظام إلى نظام جائز بالخروج من منهاج إلى منهاج آخر، سواء بالإلغاء من الخارج أوبالتّجاوز، بعد التّدرج في استحصال مقوّمات التّطوير من الدّاخل. فإذا كان الأمر على ما استحصلنا بأنّ لنا أنّ للأفكار سياقا وتاريخا، وأنّ للذّهنيّات سياقا وتاريخا، وأنّ كلّ ظاهرة لها انبناء يقبل الفهم وفهم الفهم والنّظر وإعادة النّظر، وأن قيمة الظاهرة تكمن في مدى ما تضيفه من عناصر المغايرة والمخالفة التّي بها تكون هي هي لا في مدى ما توفّره من عناصر المؤالفة والمجانسة [5].

(4) انظر مثلا :

- ROUSSEAU J.J : Discours sur les sciences et les arts Œuvres completes. T . III Paris . Gallimard 1964.

ويتّجه نقده خاصّة إلى توظيف العلم لخدمة مقاصد السّياسة إذ يتحوّل العلم والفلسفة إلى ضرب من "الايديولوجيا".

(5) انظر مثلا :

- ELIADE Mircea : Le Mythe de l'Eternel Retour (Archétypes et Répétition) Gallimard 4ème Eds. Paris . 1984.

ظاهرة الاستشراق ومطالبها المعرفيّة :

فإذا كان ذلك كذلك، عددنا حينئذ ظاهرة الاستشراق ظاهرة تقبل الفهم لأنّها من إخصاب نظام "صدمة الحداثة" مثلما عددناها ظاهرة متطوّرة في تاريخها من جهة الفكر ومن جهة الذهنيّة باعتبار أنّ حركة الاستشراق في القرن التّاسع عشر ليست حركة الاستشراق في القرن العشرين كما أنّ المواقف منها في القرن التّاسع عشر ليست المواقف منها في القرن العشرين وهكذا دواليك تبعا لعلاقاتها بالمكان والزمان.

إن جذور ظاهرة الاستشراق قديمة نسبيّا وإن كانت ضعيفة التمثيليّة ومحدودة بأفراد معلومين ومعدودين [6] لكنها استقامت حركة علمية ذات شأن كبير منذ القرن التاسع عشر على وجه الخصوص في عصر ثقافي مثّلت فيه فكرة التّطور أهمّ مقوّم فكري من مقوّمات الآفاق الذّهنية لعلماء القرن التّاسع عشر وهو عصر ثقافي شهد أوج الشكّ في سلطة السّائد أوالمألوف من الموروث والجاهز.

ويلحظ دارس حركة الاستشراق في البيئة الثّقافية العربيّة الإسلاميّة أن جهود المستشرقين العلميّة في القرنين الأخيرين قد انصبّت على دراسة الحركات الفكريّة، فطلبت مباحث الفرق الإسلاميّة وعقائد المسلمين وأديان عرب الجاهليّة وديانات الساميين [7] وفنّ العمارة الإسلاميّة فضلاً عن الدّراسات الأدبيّة والتّاريخيّة والجغرافيّة والفلسفيّة والعلمية تحقيقا ونشرًا ودراسة وتأليفًا [8].

(6) انظر : عبد الرحمان بدوي : موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1984.

(7) المرجع السابق. أنظر على سبيل المثال أعمال اغناص غولد تسيهر Goldseiher Ignaz
وأعمال روبرتسن سميث Robertsen Smith
وأعمال الجمعية الآسيوية الملكية والجمعية البروسية الملكية الفنية.

(8) أنظر مثلا : سير توماس أرنولد : تراث الإسلام (من تأليف جمهرة من المستشرقين) عربه وعلق على حواشيه جرجيس فتح الله، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط3، بيروت، 1978. أنظر بابي الطب والعلوم والجغرافيا والتجارة.

ولكن، لئن طغى على دراسات المستشرقين المنحى الحضاري الباحث عن مرتكزات الفكر العربي الإسلامي وأبنيته ومصادره ومراجعه، وهي دراسات تسهم من بعض الوجوه في تطوير آفاق الثّقافة العربيّة، من جهة المضامين خاصة. فلقد كان يوازيه ضرب آخر من الدّراسات اللغوية القائمة على البحث نظريا وتطبيقيّا في مسألة نشأة اللّغات السّامية وفي تاريخ اللّغة العربيّة وعلاقاتها بأخواتها السامية وفي علاقاتها باللّهجات العربيّة وخاصة في القرن التاسع عشر [9].

منزلة الدّرس اللّغوي في دراسات المستشرقين ومناحيه :

أ ـ الدّرس اللّغوي مظهر تثاقف :

لعلّ النّاظر في جهود المستشرقين يلحظ أن أعمالهم المعجميّة من أوثق جهودهم العلميّة صلة بتطوير دراسة اللّغة العربيّة، سواء ما اتّصل منها بصناعة المعاجم ثنائيّة اللّغة على وجه الخصوص، العربيّة واللاّتينيّة في البداية ثم العربيّة وغيرها من اللّغات الهند وأوروبيّة، أوما توجّه من تلك الجهود إلى تطوير مناهج الدّرس اللّغوي انطلاقًا من رصد ظاهرة الاقتراض اللّغوي وبحث مصادره ومناهجه ومعالمه على غرار نهج "دوزي" (R. Dozy) وجماعته في :

(9) عبد الرحمان بدوي: موسوعة المستشرقين...

انظر على سبيل المثال أعمال هنريش تربيك Heinric Thorbecke في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ولهجاتها.

وأعمال ستنشنيدر Steinschneider في اللّغات السّامية.

وأعمال هنس ستوم Hans Stumme في اللّهجات المغربيّة.

- معجم الألفاظ الإسبانيّة والبرتغاليّة المشتقّة من اللّغة العربيّة. ط. بريل. ليدن 1869. أو ما قام به. د. ل. دي. اكويلاث (D.L de Eguilaz) في :
- المعجم اللّغوي للمفردات الإسبانيّة التّي هي من أصل شرقي. ط. غرناطة 1986.

ولقد تتابع منوال هذا المنحى من العمل اللغوي، في القرن العشرين، إذ عددنا مما عددنا عمل : ك. لوكوتشي (K. Lokotsch)

- المعجم اللّغوي للكلمات الأوروبيّة ذات الأصول الشرقيّة. ط. هيدلبرج 1927. وعمل : س. ر. دلكادو (S.R. Dalgado)
- معجم الكلمات الشرقيّة (Glasàrio uso-asiàtico) ج 2. ط. كودميرا 1919 - 1921.

وما نشره ميقل. اسان. بلاسيوس (Miguel Asin Paliacios) في مجلّة الأندلس. ج.9.

- في الكلمات العربيّة الدخيلة على اللّغة الإسبانيّة الحديثة وما نشره جوزية بدرومشادو.
- أثر اللّغة العربيّة في اللّغة البرتقاليّة. مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة. ج 18. ص ص 65 - 70.

ولم يقتصر هذا الضّرب من العمل المعجمي اللّغوي التّأصيلي على مستوى المستعمل من الدّخيل أو المولد وإنّما تناول أيضًا البحث في اللّهجات باعتبارها رافدًا من روافد العربيّة ومستوى من مستوياتها ناهيك ما قام به :

- A.Barthélemy : Dictionnaire Arabe-Français, Dialectes de Syrie: Alep, Damas, Liban, Jérusalem. Paris1935.

- Gilbert Boris: Lexique du parler arabe des Marazig . éds. Klincksieck Paris, 1958.
- Claude Denizeau : Dictionnaire des parlers Arabes de Syrie, Liban et Palestine (Supplément au Dictionnaire Arabe - Français de A.Barthélemy). Eds.Maisomneuve, 1960.

- Jean Marie Cortade(avec la collaboration de Mouloud Mammeri) : l'Ahaggar), Alger, 1967. Lexique Français-Touareg (dialecte de

هي أعمال معجمية مخصوصة نهضت بها خاصّة جمعيّة اللّغات الشّرقيّة الّتي اهتمت بدراسة اللّغات الإفريقيّة والآسيويّة وهي لا تخفي غرضها من دراسة تلك اللّهجات إذ المقصد منها الوقوف على خصائص تلك المجتمعات المدروسة وأنماط أبنيتها الذهنية وعوائدها وتقاليدها من خلال دراسة أنظمة تعبيرها [10].

(10) يقول جون ماري كورتاد Jean Marie Cortade في تمهيد معجمه Lexique français- Touareg

- «Le dictionnaire Touareg-Français dialecte de l'Ahaggar n'est pas seulement un dictionnaire philologique où les mots sont analysés, les racines recherchées, la sémantique précisée et les flexions codifiées . C'est aussi une encyclopédie de l'Ahaggar, il révèle l'état d'une société, dans ses croyances, sa mentalité, sa culture matérielle et ses traditions orales à une époque cruciale où cessent son indépendance et son isolement relatif».

ويقرر الأمر نفسه، عموما، لوي برينو Louis Brunot وهو اختصاصي في اللهجات المغربية بحد لسانه في : Intruduction à l'arabe morocain

- «Il faut dit-il mettre l'action sur cette connexion étroite qui existe dans l'esprit des Maghrébins entre la religion et la langue. L'Afrique du Nord présente cette particularité psychologique d'être rebelle à toute différenciation entre la langue et la religion».

ولمزيد التوسّع انظر : عبد العزيز بن عبد الله : معجم الأصول العربيّة والأجنبيّة للعاميّة المغربيّة (مقارنات مع بعض العاميّات في العالم العربي) (سلسلة المعاجم والقواميس) 1964.

وانظر كذلك :

- Feghali (M.Michel) : Contes, Légendes, coutumes populaires du Liban et de Syrie. Paris 1935.
- Granqvist (Hilma) : Marriage conditions in a palestinian village, 2 vol,Helsinki (1931.1951).
- Harfouche (Joseph) : Le drogman arabe, guide pratique de l'arabe parlé pour la Syrie, La Palestine et l'Egypte . Beyrouth 1923.

ويمكن أن نذكر قائمة طويلة في مثل هذه الأعمال اللّغويّة الخاصّة بدراسة اللّهجات العربيّة (11) والتي شملت دراسة البنية النحويّة مثلما شملت البنية المعجميّة (12).

ولقد دفع هذا العمل اللّغوي المخصوص بعض اللّغويّين العرب إلى الاهتمام بشأن اللّهجات العربيّة إذ انبرى بعضهم يقارن بين اللّهجات المختلفة واهتمّ البعض الآخر بمحاولة تفصيحها (13).

ولئن كان حظّ اللّهجات العربيّة بالشّام من دراسات المستشرقين أوفر من حظّ غيرها من اللّهجات العربيّة الأخرى لأسباب مختلفة ومتعدّدة، فإنّ أبنية الفصحى الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والمعجميّة والدّلاليّة كانت بدورها مصدر دراسات عديدة، عامّة ومخصوصة لعلّ من أهمّها :

- كتاب يوهان فك : "عربية"........... : - Johan Fuck «Arabiya» :
Berlin 1950,/Paris, 1955.

---

(11) Bergstrasser (G) : Zum arabischen dialekt von Damaskus. I. Phonetik-Prosatexte . Hanovre, 1924.
- Cantineau (Jean) : Le dialecte arabe de palmyre. I grammaire, II vocabulaire et textes . Beyrouth, 1934.
- Harvey Sobelman : Arabic dialect studies, a selected bibliography . Washington. 1962.

(12) FEGHALI (M. Michel): Syntaxe des parlers arabes actuels du Liban, Paris 1928.
Lemée (F) : Arabe parlé Syrien. I. Eléments de grammaire, II vocabulaire et exercice de conversation . Damas 1938.
NAKHLA (Raphaël) : Grammaire du dialecte libano-Syrien, I, Exposé des règles, Beyrouth , 1937.

(13) انظر : عبد العزيز بن عبد الله : معجم الأصول العربية والأجنبية (مقارنات مع بعض العاميات في العالم العربي) 1964. وفيه يستشهد بحلقات المقارنة التي ظهرت في مجلة اللسان العربي، بين اللهجات العربية، وبأعمال لجنة اللهجات العربية وبقراراتها في صلب مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

- John A Haywoord : Arabic lexicography, its : وكتاب -
History and its place in the general History of lexicography, Leiden,1960.

- Max Meir Bravmann : Studies in Arabic and : وكتاب -
general Syntax Publication de l'institut Français d'Archéologie orientale du Caire), Le Caire 1953.

- Henri Ffleisch : - L'arabe classique esquisse : وكتاب -
d'une structure linguistique. N.Eds. Beyrouth, 1968.

- Traité de philologie arabe Vol..I.Préliminaires, phonétique, Morphologie nominale. Beyrouth,1968.
- Introduction à l'étude des langues sémitiques. Eléments de bibliographie, Paris, 1947. Maurice Gaudefroy - Demombynes - Régis.

Blachère : Grammaire de l'arabe classique, Paris, 1937.

ولقد تجاوزت مطالب المستشرقين مبحث الفصحى إلى مباحث لغويّة تخصّ ما قد سميّ بالعربيّة المعاصرة أو الميسرة باستصدار أعمال لغويّة نذكر منها تصانيف :

- Jean Lecerf : L'arabe contemporain comme langue de civilisation B.E.O, 2 (1932), pp.179-258. 3 (1933).pp.43-175.

- Vincent Monteil : L'arabe moderne (Etudes et documents) Paris, 1960.

- V.Becker: A transfer grammar of the verbstructure of modern literary Arabic and Lebanese colloquial ArabicYale University,1964.

- Ernest Mainz : Zur Grammatick des moderneu schriftarabisch. Hamburg, 1931.

- ومقال. ر. بلاشير : تطوّرات اللّغة العربيّة ومجاراتها للعصر الحاضر (ترجمة محمد فريد غازي). الفكر. س4.ع6. 1959. ص ص 62 -64.

ولقد عزفنا عن تسجيل أعمال ملتقيات المستشرقين العديدة منذ أواخر القرن التّاسع عشر، وأعرضنا عن تثبيت مراجع عديدة مكتوبة بالألمانيّة وتتناول قضايا العربيّة ولعلّها من أهمّ الدّراسات مثلما اجتنبنا ترسيم عشرات المقالات اللّغوية حتّى لا نثقل لائحة الإحصاء وإن كنّا نعي ضرورة تثبيت كلّ ذلك في فهرس عام يهدي الدّارسين إلى كافّة المراجع الخاصّة بالدّرس اللّغوي العربي وبكافّة الألسنة. ولم نغفل عن أنّ الدّرس اللّغوي من جهة البحث في تاريخه ومادته اللّغويّة كان مبثوثا في ثنايا كتب تاريخ الأدب التي صنفها بعض المستشرقين ولعلّ أهمّها كتاب :

- Karl Brockelmann : Geschichte der Arabischen litteratur... Leiden 1937-1949.

أو عن تأليف نوع من معاجم الاختصاص الدّقيق من جنس عمل :

- A.M Goichon : Lexique de la langue philosophique d'Ibn Sina (Avicenne), Paris, 1938.
- Louis Massignon : Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane,1968.
- R.Dozy : Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845.
- Antoine Boudot-Lamott : Lexique de la poésie guerrière dans le Diwan de Antara, b. Saddad al Absi. Arabica, 11 (1964), p p. 19-56.

يبرز ثبت الأعمال المرصودة على ما فيه من انتقاء وانتخاب جهود المستشرقين من جهة غزارة التأليف وتنوعه واختلاف مطالبه وتعدّد

مباحثه ومناهجه، وإن هي إلاّ توسيع لآفاق البحث في الدّرس اللّغوي وتطوير مناحيه وأغراضه.

ولعلّ ما أفادته العربيّة من تلك الدّراسات يكمن خاصّة في تطويع مادتها اللغوية بمستوياتها المتعدّدة للدّرس اللّغوي المقارن بينها وبين سواها من اللّغات السّامية وبينها وبين روافدها اللّهجية نظريّا وتطبيقيّا. وقد عددنا استئناس الدّرس اللّغوي بفكرة التّطور المبنيّة على القول بفعاليّة التّحول، وعلى ضرورة الاهتداء إلى معنى التّحول من جهة مقوّمات المعنى أو الدّلالة وأبنية اللّفظ. كسبًا أفاده الدّرس اللّغوي العربي من مناهج المستشرقين في تناول الظّاهرة اللّغويّة من جهة البحث في العوامل الظّاهرة والخفيّة في التّطور اللّغوي في جانب الألفاظ والتّراكيب والمعاني (14).

(14) ماسنيون لوي (Louis Massignon) : المعاجم الأوروبيّة الحديثة ومدى ما تستفيده المعاجم العربيّة منها. مجلة مجمع اللّغة العربيّ بالقاهرة، ج7،ص ص 359 - 360.

إبراهيم مدكور : المعجم العربي في القرن العشرين، المرجع السابق.ج 16، ص ص7 - 12، يقول في ص 12.

"والآن نستطيع أن نقرر أن فن المعجم العربي نما وتطور في القرن 20 وأخذ يحاكي نظيره في اللغات الأوروبية الكبرى أو يزيد عليه وطرحت تلك النظرية التي كانت تقول بأن العربية لغة لا تقبل التجديد ولا التطور وأصبحنا نسلم بعربية معاصرة إلى جانب العربية القديمة وكلاسيكية وكلاسيكية محدثة وفتح باب القياس على مصراعيه في اللغة كما فتح في الفقه والتشريع ومن حقنا أن نبتكر ألفاظا وعبارات كما ابتكر أجدادنا وقد استعادت العربية نشاطها بعدما مر بها من خمول وفيها اليوم حياة وقوة لم تنعم بهما منذ عدة قرون".

- يعقوب بكر : دراسات مقارنة في المعجم العربي، المرجع السابق. ج 26، ص ص - 168 .157

- حامد عبد القادر : صيغة فعيل وما يشبهها في بعض اللغات السامية. المرجع السابق. ج 21. ص ص 63 - 65.

- حامد عبد القادر : صيغة فعلون في غير اللغة العربية من اللغات السامية. المرجع السابق. ج21.ص ص 66 - 68.

وانظر أيضا : أنيس المقدسي : العوامل الخفية في التطور اللغوي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج 44. ص ص 289 - 308.

رمضان عبد التواب : التغيرات التاريخية والتركيبية للأصوات اللغوية. ج 1. مج 50. ص ص 148 - 172.

ب - الدّرس اللّغوي مجرى تنازع المعرفة وإيديولوجيا المعرفة: جدليّة المعرفة والسّلطة.

لقد سبق أن اهتدى أهل العربيّة إلى قيمة إسهام المستشرقين أوالمستعربين في إثراء الدّرس اللّغوي العربي وتطويره وتجديده فما بخسوهم حظّهم من المعارف [15].

وإن لم يسلّم بعض علمهم أحيانًا من شيء من التجنّي أوالتظنّي ولم يخلص مبحث الاستشراق من ظنّة تفتر وتحتدّ، من عصر ثقافي إلى عصر ثقافي آخر في وقت تمكّن فيه مبحث العلاقة بين السّياسي والمعرفي [16].

ولئن بدا الموقف من الاستشراق ومن المستشرقين مواقف منصبّة، في الظّاهر، على العلم، وعلى منهج العلم، فإنّها تحيل، في الأصل، وبدرجات متفاوتة، على النّوايا من المعرفة وعلى توظيف نتائج المعرفة،

(15) انظر : لويس ماسنيون : خطرات في الاحتفاظ بعبقرية النحو العربي. مجلة المجمع العلمي بالقاهرة. ج 10. ص ص 57 - 59.

- MADKOUR Ibrahim: Massignon le grand arabisant (M I D EO
معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومينيكيين بالقاهرة Mélanges 17, pp.265-270.

- محمد كرد علي : أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية.
مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. ج 3. من محاضرات المجمع العلمي العربي (1954). ص ص 1 - 31.

- محسن جمال الدين : ما أسهم به المستشرقون الإسبان في الدراسات الإسلامية. المورد. ع 4. مج 9. ص ص 433 - 447.

(16) انظر خاصة :
عبد النبي اصطيف : (مقدمات في الاستعراب الجديد). نحن والاستشراق (ملاحظات نحومواجهة إيجابية) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. ج 4. مج 57. ص ص648 - 665 (القسم الأول) وج 1. مج 59. ص ص 116 - 137 (القسم الثاني).
ادوارد سعيد : "الاستشراق" (المعرفة، السلطة، الإنشاء) نقله من الانقليزية إلى العربية كمال أبوديب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت، 1981.

- ABD EL MALEK Anouar: Orientalism in Crisis in his Social Dialectics.vol I, Civilisation and Social theory, State University of New York, 1981.

مثلما كانت تخفي، في الحقيقة، صراعا متقادم العهد، ومتجدّدا في الزّمان، بين الغرب المسيحي وبين الإسلام، عمومًا، ومن جهة أولى، وصراعا، أعم، بين الشرق والغرب، من جهة ثانية. وإن كنا نرى، حديثا، أن جوهر المبحث موصول وصلاً عضويّا بترابط تلازمي وطبيعي بين إرادتين: إرادة المعرفة وإرادة سلطة المعرفة. وهما وجهان من الإرادة يؤسّسان معًا، معنويّا وماديّاً، منوال المعرفة وسيادة أنموذجها الّذي يظلّ يبني سلطته ما دام متغلّبا وفعّالا. ولئن جاز التئام السّلطة،عمومًا، من طريق مطلب الإرادة دون حاجة ضروريّة، إلى المعرفة، فإنّه يمتنع إنجاز معرفة لا تتضمّن سبيلاً إلى السّلطة أولا تطلبها أولا تساعد على تثبيتها وترسيمها.

وإنّ في الإشارة العامّة، إلى تلك الأسباب المباشرة وغير المباشرة، القريبة والبعيدة، الموضوعيّة والذّاتية، في الوقت نفسه، بعض التّفسير لما اتّسمت به تلك المواقف من تعدّد واختلاف وخلاف، طعنا وتشكيكًا وجدالاً، إلى حد التظنيّ والتجنيّ، من جهات شتىّ، مختلفة المنازع ومتعدّدة المناهج.

وكان من الطّبيعي أن تخصب تلك الحركة الفكريّة والمستحدثة، من مناصري الاستشراق ومن معارضيه، في البيئة الثقافيّة العربيّة الإسلاميّة، ما قد يعرف بعلم الاستشراق، وأن يتوزّع الخطاب، حول الاستشراق، على أكثر من خطاب، ومن مبحث، ومن توجّه، ومن موقف، ومن منهج، من جهات معرفيّة، نظريّة وعلميّة، شتىّ. وقد بلغ أمر الخلاف والاختلاف، والنّزاع والتنازع، إلى حدّ التّفكير في تفكيك نظام الاستشراق العام إلى أنظمة استشراق صغرى على منوال الاستشراق العربي الإسلامي والاستشراق الإيراني والاستشراق المصري والاستشراق التّركي والاستشراق الهندي والاستشراق الصّيني والاستشراق الآسيوي والاستشراق الشرق أوسطي والاستشراق الإفريقي...

وجرى على ذلك النّحومن الفهم تأسيس الجماعات والجمعيّات الاستشراقيّة والمتخصّصة، وتثبيت سنن المؤتمرات الاستشراقيّة والمجلاّت العلميّة والنظاميّة (17).

عاب الدّارسون العرب عمومًا على الاستشراق، توظيف المعرفة لخدمة السّياسة، ونعتــوه بالأزمة (18). وألحّ بعضهم الآخر، على انحكام الخطاب الاستشراقي بنوايا عقديّة ونفسيّة وتاريخيّة، داخليّة وخارجيّة (19).

---

(17) COHEN Claude : Introduction à l'histoire du monde musulman medieval VII-XVe.s. Paris, 1983.

مجموعة من المستشرقين السوفيات: تاريخ الاستشراق والدراسات العربية والكردية في المتحف الآسيوي ومعهد الدراسات.

الشرقية في لينينقراد (1818 - 1968) تعريب معروف خزنه دار ودراسة.ط1. بغداد 1980 (الطبعة الأصلية. موسكو1972).

(18) ABDELMALEK Anouar : L'orientalisme en crise in Revue Diogéné. N° 44 Année1963.

- عرب المقالة حسن قبيسى : الاستشراق في أزمة، مجلة الفكر العربي عدد خاص بالاستشراق، رقم 31، سنة 1983.
- محمد ياسين عريبى : الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي(نقد العقل التاريخي) ط1. المغرب 1991.

انظر الوحدة الثالثة : الاستشراق ومرحلة التبني والاستيعاب للعقل التاريخي العربي. ص ص 129 - 188.

والوحدة الرابعة : الاستشراق ومرحلة التمثل والاستلاب للعقل التاريخي العربي. ص 189.

(19) انظر، على سبيل المثال :

- أحمد عبد الرحيم السايح : الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي ط1. القاهرة 1417 هـ / 1996 م.
- عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة النبوية. ط. قط 1410 هـ.
- محمود حمدى زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري.ط. قطر 1404 هـ.
- محمد صالح البنداق : المستشرقون وترجمة القرآن الكريم. ط1. بيروت 1400 هـ / 1980 هـ / 1980 م.
- محمد عزت الطّهطاوي : التبشير والاستشراق : أحقاد وحملات. ط. مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر. القاهرة 1397 هـ / 1977 م.
- عبد العزيز القارى : المستشرقون في الميزان : حاضرات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة 1393 / 1973 م.

ولم نعدم ضروبا من التحرز العلمي، على كتابات المستشرقين في دراسات أخرى، أكاديميّة، حرصت على ترسيم حدّ لا بأس به من العلميّة والموضوعيّة إذا سلّمنا بانعدام الحياديّة الصّرف في درس الظاهرة الإنسانيّة [20].

وإذ صار الاستشراق جزءًا من المشكلة الثّقافيّة، بعد أن رقي بمدارسه وبمناهجه إلى حدّ العلم، واكتملت بردود المستشرقين أنفسهم، دون أن تكون موحّدة ولا موحدة بينهم، وإن اشتركت في الدّفاع عن المنهجيّة الغربيّة وعن مزايا تطبيقاتها على التّراث العربي الإسلامي، مثلها في ذلك مثل خطابات العرب أنفسهم على الخطابات الاستشراقيّة، سلبًا وإيجابًا، مناصرة ومعارضة، لم يكن بوسع أحد أن يتحلّل من مطالب المعرفة وسلطة المعرفة، من جهة، ولا من مطالب وظائف المعرفة من خارج المعرفة ومن داخل إيديولوجيا المعرفة، ولا أن يعرض عن شيء من مطالب الذّات ومن مطالب الوعي بالهزيمة وبالغلبة [21].

الخاتمة :

لئن عددنا الحوار بين الثّقافات والحضارات، عموما، والتّعارف بين الشّعوب والنّاس، خصوصًا، من شروط بقاء النّوع البشري، ومن وسائط إثراء التجربة الإنسانيّة، على اختلاف روافدها، الدّاخليّة والخارجيّة،

(20) مالك بن نبي : إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث. ط. بيروت 1969.
التهامي نقرة : القرءان والمستشرقون(في مناهج المستشرقين). ط. تونس 1985.
إدوارد سعيد : الاستشراق. تعريب كمال أبوديب. ط. مصر1981 (الطبعة الأصلية الأنجليزية 1978 والفرنسية 1980).

(21) محمد أركون - و - مكسيم رودنسون (Maxim, Rodinson) - و - آلان روسيون (Alain Rossienn) - و - برنارد لويس (Bernard Lewis) - و - فرانسيسكو غابريلي (Fransisco Gabrielli) - و - كلود كاهن (Claude Cahen) : الاستشراق بين دعاته ومعارضيه. تعريب هاشم صالح. ط1. بيروت 1994.

الذّاتية والموضوعيّة، من داخل الجماعة البشريّة الواحدة، أو في علاقتها بمن هومن خارجها، لئن الحوار يظلّ كشّاف الرّؤى الذهنيّة، تفكيرًا وتعبيرًا، قولاً وفعلاً، فإنّ واقع الحال يثبت ألاّ وجود لحوار دائم أولقطيعة دائبة، وألاّ وجود لفك ترابط بين المعرفة وبين سلطة المعرفة، أوبين الموضوعيّة وبين الذاتيّة أوبين المعرفة وبين إيديولوجيا المعرفة، وإنّما الأصل في المسألة أن تظلّ حركة الحوار ساعية، باطّراد، إلى توسيع حدود الشّراكة، وتوفير عناصر المجانسة، وضمان استمراريّة التّفاهم، وإلى تقييد عناصر المخالفة والمغايرة وسوء الفهم، بين الناس.

فلا سبيل إلى التّحلل من قيود الذّاتية وإلى إنكار سلطة المعرفة، ووظائف المعرفة، وإيديولوجيا المعرفة، وخصوصا في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة [22]. وإن في ذلك بعض التفسير لتنامي الحاجة إلى تجدّد العقود المعرفيّة والأخلاقيّة لبناء أفق أرحب للأخوة في الإنسانيّة وللوحدة في الآدميّة.

(22) FOUCAULT Michel : L'ordre du discours, Paris, 1970.